الجاليات المسيحية بالمغرب الأوسط الزيانّي
صورة مشرقة عن التعايش والتسامح بين الإسلام والمسيحية

د. خالد بلعربي•

جامعة جيلالي اليابس، سيدي بلعباس- الجزائر

الملخص:

يتناول هذا المقال أوضاع الجالية المسيحية بالمغرب الأوسط في عهد الدولة الزيانية، حيث تبين لنا أن التعايش والتسامح كان سمة بارزة ميزت العلاقة بين الطرفين، رغم ما انتابها في بعض الأحيان من التوتر. ستعالج هذه الورقات أوضاع المسيحيين أو ما يُعرفون بأهل الذمة، أي أولئك الذين يقيمون بصورة دائمة بأرض المغرب الإسلامي، وكذلك بـ"الجاليات الأوروبية المسيحية" عموما ممن يمموا وجوههم شطر هذه المنطقة مدفوعين إما برغبة تجارية أو مهنية أو عسكرية -تحت ظرف الأسر والنفي- على العيش في المغرب الأوسط خلال العهد الزياني.

الكلمات المفتاحية: المغرب الأوسط؛ التعايش؛ الدولة الزيانية؛ التسامح؛ المسلمون؛ المسيحيون.

Christian Communities in the Zianide Central Maghreb Coexistence and Tolerance between Islam and Christianity

Dr. Khalid Belarabi
Université Djillali Liabès de Sidi Bel Abbès
belarbi.tlemcen@yahoo.fr

Abstract:

This article deals with the situation of the Christian community in the Maghreb under the Zianide state, in which coexistence and tolerance was a prominent feature that remarked the relationship between Muslims and Christians, despite the tension that occurred sometimes. The article will tackle situations of Christians or what are known as the *Dhimmis*, those who reside permanently in the territory of the Islamic Maghreb. It also deals with the European Christian "communities" that lived in this region, driven by either commercial, professional, or military desire, or captive and those who were exiled in the Maghreb.

Keywords: the Maghreb; the Zianide state; Christians Muslims; coexistence؛ tolerance

مقدمة:

من المحقق إنّه لا يمكن قراءة تاريخ المغرب الأوسط في العهد الزيانّي بمعزل عن "أسرته" المتوسطية ومن المُسلّم به أيضا إنّ البحر الأبيض المتوسط لم يكن عبر مختلف حقب التاريخ نقطة فصل بقدر ما كان أداة تواصل ولقاء، يشهد على ذلك ما عرفته ضفتاه من أطوار متعاقبة من التوتر والسِّلم، وفترات المد والجزر التي تمخض عنها في نهاية المطاف رسم المعالم الأساسية والانعطافات الكبرى لمسارهما التاريخي.

وإذا كانت الأمثلة تتعدد حول المواجهات المسلحة التي استعرت بين بلاد المغرب الأوسط وبعض البلدان المتوسطية المسيحية، فإنّ حالات التعايش السلمي والتسامح بين شعوب المنطقتين لم تنعدم بالمرة، ولا غرو فإنّ عددا من ساكنة المغرب الأوسط عبروا البحر ليقيموا في عدد من البلدان الأوروبية المسيحية[١]، كما أنّ خليطًا من الشعوب المتوسطية وجدوا في بلاد المغرب الأوسط القبلة الملائمة لتنشيط حركتهم التجارية[٢]، أو تقديم خدماتهم العسكرية والفنية، فعاشوا بين أحضان مجتمع المغرب الأوسط في جو من التسامح الديني والسلم، وهو ما يسعى هذا البحث إلى معالجته.

والجدير بالتنبيه أنّ هذا البحث لن يعالج أوضاع المسيحيين أو ما يعرفون بأهل الذمة، أي أولئك الذين يقيمون بصورة دائمة فوق أرض المغرب الإسلامي فحسب؛ بل سيهتم كذلك بـ "الجاليات" الأوروبية المسيحية عموما ممن يمَّموا وجوههم شطر هذه المنطقة مدفوعين إمَّا برغبة تجارية أو مهنية أو عسكرية -تحت ظرف الأسر والنفي- على العيش في المغرب الأوسط في العهد الزيانّي.

ولئن تمكن بعض الباحثين الأوروبيين من قطع أشواط بعيدة في دراسة هذا الموضوع نظرًا لما توفر لديهم من وثائق محفوظة، مثلما فعل مسلاتري (Maslatrie) عندما نشر مجموعة من الوثائق اللاتينية التي تخصّ العلاقات بين ضفتي البحر المتوسط[٣]، فإنّ دراسة الموضوع في الاسطوغرافيا العربية لم يحظ بالتفاتة علمية تذكر في الدراسات التاريخية الحديثة، باستثناء بعض الإشارات الخفيفة عنه كما فعل الأستاذ لحسن الغرايب من المغرب الأقصى في كتابه الموسوم بـ"مسيحيو المغرب الأقصى في العصر الوسيط"[٤]، والأستاذ عطاء علي محمد شحاتة في دراسته الموسومة بـ"اليهود في بلاد المغرب الأقصى في عهد المرينيين والوطاسيين"[٥]. قد يُفسر هذا الإقصاء من دائرة اهتمامات المؤرخين العرب بشُّح المادة

التاريخية المتعلقة بتاريخ الغرب الإسلامي التي ضربت صفحًا عن ذكر الأخبار المتعلقة بهذا الموضوع، باستثناء إشارات شاحبة وردت بكيفية عفوية في بعض هذه المصادر[٦]، أو أنّ معظم الوثائق تعرضت للضياع نتيجة لغياب خطة إدارية جادّة تسعى إلى حفظها وصياغتها وصيإنّتها.

على أنَّ الأمل يبرق فيما يمكن أنْ توفره المصادر الدفينة من إشارات مهمة حول الموضوع، فضلاً عن المخطوطات التي بإمكانها أنْ تمدنا بمعلومات عميقة تثري معرفتنا بتاريخ الجاليات المسيحية في الغرب الإسلامي. ومع ذلك، يمكن في ضوء النصوص المتاحة بعد لمُّ شتاتها، وتعريتها مما علق بها من مثالب، ووضعها في إطارها الصحيح، عن طريق ربطها بظرفيتها التاريخية، والسيَّاق العام لأحداث البحر المتوسط أنْ نُخرج ولو بصورة تقريبية أسباب تواجد الجاليات المسيحية في بلاد المغرب الأوسط في العهد الزيانّي، ودراسة وضعيتها وأدوارها في مجتمع المغرب الأوسط.

أولاً: أسباب ودواعي تواجد الجاليات المسيحية في بلاد المغرب الأوسط الزيانّي:

إنّ تحليل الظرفية التاريخية التي أدت إلى توافد شعوب دول البحر المتوسط على بلاد المغرب الأوسط في العهد الزيانّي قَمِنٌ بالكشف عن أسباب هذه "الهجرات الجماعية"، غير أنّ المجال قد لا يتّسع لذكر كل التفاصيل؛ لذلك سنكتفي بتقديم الملامح العامة للموضوع. لقد أدى انّتعاش الحياة الاقتصادية في البلدان المتوسطية خلال هذه الفترة، أنْ سارعت الكثير من دول أوروبا خاصة الجمهوريات الإيطالية (جنوة، ليفورن، نابولي، بيزة، البندقية)، والبرتغال، إسبانيا (إمارة أراغون) للبحث عن أماكن لتسويق الفائض من منتجاتها في دول المغرب الإسلامي[٧]، وقدْ غدت أساطيل هذه الدول تتوافد على موانئ الدولة الزيانية كهنين[٨] وتنس[٩]، وبادر تُجارها لعقد معاهدات تجارية وسلمية مع السلاطين الزيانّيين[١٠]، ولما كانت الكنيسة ترعى هذه المصالح التجارية وتباركها، فقد بعثت بأساقفتها وقسيسيها إلى مختلف مدن المغرب الأوسط لتنظيم حياتهم الدينية، فكان هذان المظهران أساساً في الحضور المتوسطي المسيحي بالمغرب الأوسط الزيانّي.

يتبين إذن أنّ الرغبة في إنجاح المشروع التجاري الزيانّي عن طريق إقامة علاقات تجارية مع دول البحر المتوسط كانت القناة الأولى التي جلبت الجاليات المسيحية إلى المغرب الأوسط، لكن هناك قنوات أخرى من بينها ضرورة تقوية "الجهاز الأمني" للسلطة الحاكمة عن طريق توفير كتائب عسكرية أجنبية واستعمالها كفرق مجندة للقتال في صفوف الجيش الزيانّي.

إنّ أول إشارة لظهور كتائب عسكرية من البلدان المتوسطية المسيحية في العهد الزيانّي تقترن بالسلطان المؤسس يغمراسن بن زيانّ (٦٣٣-٦٨٢هـ/ ١٢٣٥-١٢٨٢م)، حيث تشير بعض النصوص الزيانية واللاتينية، إلى أنّه في سنة (٦٦٥هـ/ ١٢٦٦م)، استخدم فرقة مسيحية مهمة، تتكون من القطلانيين والأراغونيين، بقيادة الأب فيلارجو (Pére de vilararagut)، ثم تولى القيادة بعد قيوم غالسيرانّ دي كارتيلا (Galceran de Cartelle Guillem)، وفي سنة (٦٧٠هـ/ ١٢٧١م) كان نحو ٥٠٠ فارس من الروم يقاتلون إلى جانب يغمراسن بن زيان، ضدّ بني مرين، الذين تمكنوا من القضاء عليهم جميعًا[١١]، وكان على رأس الفرقة العسكرية المسيحية في سنة (٦٧٩هـ/ ١٢٨٠م)، القائد جوم بيري (Jaumme Perez) هجين الملك بيار الثالث الأرغوني (Pierre III)، والجدير بالذكر أنّ البابا نيكولا الرابع (Nicola IV) حثّ الجنود المسيحيين في سنة (٦٨٩هـ/ ١٢٩٠م)، على التمسك بديانتهم والتحلي بالسلوك القويم، وعدم اعتناق الإسلام[١٢].

وفي عهد السلطانّ أبي حمو موسى الثاني (٧٦٠-٧٩١هـ/ ١٣٥٩-١٣٨٩م) تزايد عدد المرتزقة المسيحيين في جيشه وصنفهم ضمن المماليك الخاصة بحراسته وفي هذا الصدد يقول صاحب البغية: "فاستركب الحرم وحمل الأموال وأكفل بذلك الخصيان والنصارى المستخدمين"[١٣].

وقد وجد عاهل أرغون فائدة كبيرة في وجود الفرق العسكرية المسيحية، في خدمة الدولة الزيانية وغيرها، لأنه كان يأخذ ضرائب غير مباشرة، عن رواتبهم يقسمها العاهل الزيانّي. والميزة الرئيسة لهذه الكتائب العسكرية هي أنّها لم تعدْ مكونة من أسرى الحروب، بل من رجال أحرار التزموا بخدمة سلاطين بني زيان من تلقاء أنفسهم، وإذا كُنَّا لا نعرف بالتدقيق المناطق التي أتوا منها، فمن المؤكد أنّهم قدموا من مختلف مناطق البلدان المتوسطية[١٤].

غير أنّ استخدام الجيش النصراني في العهد الزياني كانّ أكثر كثافة وحُضوراً في عهد السلطان أبي حمو الثالث (٩٢٢-٩٢٣هـ/ ١٥١٦-١٥١٧م) الذي بدأت في عهده الدولة الزيانّية في الضعف نتيجة الخطر الإسباني الداهم لسواحل الزيانيين، ونتيجة للوضعية التي آلت إليها الدولة الزيانية قام "عروج"[١٥] بتنحيته من الحُكم بعدما استنجد به سكان تلمسان[١٦]، وهو الشيء الذي حذا بأبي حمو الثالث إلى الاستنجاد بالملك الإسباني آنذاك

"شارل كارلوس" المعروف في التاريخ الأوروبي بـ "شارلكان"[١٧] قصد إمداده بحاميات عسكرية لاسترجاع سلطته في تلمسان، فوجد التعضيد الكافي من الإسبان، ولسنا نعرف عدد الجند المسيحيين الذين استقدمهم لاستعادة سلطته سنة ٩٢٤هـ/ ١٥١٨م[١٨].

ومهما يكن فإنّ التواجد المسيحي أصبح يفرض نفسه عن طريق هذه الحاميات العسكرية، إلا أنّ هناك قناة أخرى تدعم بها هذا الوجود ألا وهي مسألة الأسرى عن طريق الحروب أو القرصنة البحرية التي بلغت ذروتها في ذلك العصر حتى إنّه "بلغ الحال من كثرة سبي الآدميين أنْ يُباع بيضاوان من الروم بسوداء من الوحش في بجاية"[١٩].

كان الأسرى يعدّون بالآلاف في الدولة الزيانّية، ويمثلون عناصر هامة في المجتمع التلمساني، واستخدمهم بنو زيانّ في أغراض صناعية وحرفية، وقد رفض السلطان الثانّي عثمان بن يغمراسن (٦٨١-٧٠٣هـ/ ١٢٨٢-١٣٠٣م) طلب الملك جاك الثانّي الأراغوني لإطلاق سراحهم مبررا ذلك بأنَّ جميع الأعمال والأشغال تُدار بواسطتهم، ويتضحُ ذلك في رسالة إلى جاك الثانّي حول موضوع الأسرى قائلا له" وأما ما أشرتم إليه من تسريح جميع ما عندنا من الأسرى فذلك ما لا يمكن أنْ يكون، كما لا يمكن أنْ نطلب منكم تسريح ما عندكم من أسرى المسلمين، لأنكم تعلمون أنّ ما عمّر بلادنا إلا الأسرى وأكثرهم صناع متقنون في أنواع جميع الصناعات..."[٢٠]، والظاهر أنّ عددهم ارتفع في بداية القرن الثامن الهجري (١٤م) بسبب الحروب والغارات المتبادلة بين الشاطئ الشمالي والجنوبي للبحر الأبيض المتوسط، فزاد عدد سكان المدن في الدولة الزيانية باستقبال هؤلاء الأسرى، ومنها العاصمة تلمسانّ[٢١] التي كانّت تتوفر على عدد كبير منهم[٢٢].

وبالإضافة إلى عملية القرصنة البحرية، تعززت أعداد المسيحيين بالبعثات الدينية أو الإرساليات التبشيرية التي أرسلتها الكنيسة الرومانّية لخدمة الجاليات الموجودة في المغرب الأوسط في العهد الزيانّي؛ فاستقرت فيه، وقامت بأدوار هامة في تاريخ المسيحية في بلاد المغرب الأوسط.

ثانياً: أوضاع الجاليات المسيحية ببلاد المغرب الأوسط في العهد الزيانّي: -

ساهمت عوامل عدة في تحديد وضعية الجاليات المسيحية بالمغرب الأوسط وإعطائها مكانتها المتميزة ففضلا عن الدواعي والأسباب التي تم التطرق إليها، وكانت كلها تصبُّ

في اتجاه رعاية هذه الجاليات وتحسين أوضاعها، هناك عوامل أخرى ساهمت في تكريس هذه الوضعية نذكر منها.

١. حماية الدولة الزيانّية لها انطلاقا من محافظتها على مصالحها وخاصة التجارية.
٢. تدخل الكنيسة البابوية المستمر لحماية رعاياها في المغرب الأوسط الزيانّي.
٣. كانت المعاهدات المعقودة بين الدول الأوروبية والدولة الزيانّية تُلزم هذه الأخيرة احترام حقوق رعاياها والعمل على تحسين وضعيتهم.
٤. تسامح السلاطين الزيانّيين.

بناء على هذه العوامل، سنحاول ملامسة وضعية هذه الجاليات في مختلف الميادين الدينية والاقتصادية والاجتماعية.

١. الوضعية الدينية للجاليات المسيحية:

لا يُخامرنا شكٌّ في كون هذه الوضعية استفادت من روح التسامح والتعايش التي شاعت في ربوع بلاد المغرب الأوسط، ولعل أبرز مظاهر هذه الروح العالية سماح السلاطين الزيانّيين لمختلف الفئات المتوسطية المسيحية من تُجار وجند وأسارى وغيرهم ببناء كنائس، وممارسة شعائرهم الدينية بكل حرية ورحابة صدر، ويؤكد ذلك ما جاء في المعيار: "جدد بعض النصارى كنيسة، في فندقهم وعلا عليها شيء يشبه الصومعة، فطلبوا بذلك، فأتوا بكتاب العهد، فوجدوا فيه أنه لا يحال بينهم وبين أنْ يبنوا بيتا، لمتعبداتهم"[٢٣]، كما سُمح لهم بإنشاء مقابر لدفن أمواتهم حسب طقوسهم الدينية.

واستفادت الجاليات المتوسطية من جو التسامح والتعايش مع سكان الدولة الزيانّية، فعرفت أحياء المدن التي كانت تقطنها من حرية التملك والتصرف في أملاكهم يبيعون ويشترون الأراضي، والفنادق والمنازل لدرجة أهم جاوروا المساجد في بعض الأحيان.

وقد بلغ التنظيم الكنيسي أوجه في العهد الزيانّي، ووجهت البابوية -مستفيدة من جو التسامح والتعايش- عدة أساقفة. نستشف ذلك من خلال نص معاهدة سنة ٦٨٥هـ/ ١٢٨٦ بين السلطان الزيانّي أبي سعيد عثمان بن يغمراسن (٦٨١-٧٠٣هـ/ ١٢٨٢-١٣٠٣م) وألفونسو الثالث ملك أراغونة، وهي معاهدة تتضمن في بندها السابع، تخصيص للأسقف الذي يأتي مع القائد راتب فارس[٢٤].

وإلى جانب السماح ببناء الكنائس، سمحت السلطة الزيانّية وفي نطاق التعايش بين

الإسلام والمسيحية للبعثات التبشيرية بتأدية شعائرهم الدينية بكل حرية، ولم نعثر على وثائق تدل على احتجاج المسلمين ضد ممارسة النصارى لطقوسهم الدينية بل نجدهم قد حظوا باستحسان سلاطين بني زيانّ الذين سمحوا لهم بالإقامة في عاصمتهم[٢٥].

وكان يقطن بتلمسانّ في العهد الزيانّي ما يزيد عن أربعة آلاف نسمة من الجالية المسيحية المتوسطية، وكان البابا نيكولا الرابع يتابع أخبارها شخصيًّا وعن كثب، يحثهم على التمسك بدينهم والتحلي بالسلوك الحسن، وعدم اعتناق الديانة الإسلامية، خاصة بعد أن اعتنق الكثير منهم الإسلام، نظراً للمعاملة الحسنة التي وجدوها في المجتمع المسلم المبنية على التعايش السلمي، وقد أقلق ذلك البابا وبعض ملوك قشتالة وجعل أحدهم يفرض بندًا في اتفاقياته مع الدولة الزيانّية يتضمن عدم السّماح للجالية المسيحية من اعتناق الإسلام[٢٦].

من كل ما سبق يتضح أنّ الوضعية الدينية للجاليات المتوسطية المسيحية كانّت محترمة ولا يكدر صفوها أي عائق، حيث كانت تعيش في جوٍّ أخوي مع نظرائهم من المسلمين الزيانّيين.

٢. الوضعية الاقتصادية- الاجتماعية للجاليات المسيحية:

كما حظيت الجاليات المسيحية بوضعية دينية يغمرها روح التعايش والتسامح، فإنّ منها ما تمتعت بوضعية اقتصادية تُحسد عليها، ويتعلق الأمر بفئة التجار، ولا غرو فإنّ مناخ الحرية، وحسن سياسة التعامل التي حرص عليها السلاطين الزيانّيين على جعلها سُنة، واستقطبت العديد من تجار البلدان المتوسطية الذين فضلوا الاستيطان في مدن المغرب الأوسط. وكان هؤلاء التجار ينقسمون إلى فئتين:

- التُّجار الذين يتوفرون على رأس مال ثابت، ولا يُقيمون في المغرب الأوسط بل يُعيّنون وكلاء منهم.
- التُّجار الذين لا يملكون رأس مال، ولكنهم يشتغلون لصالح الفئة الأولى، ويكتفون بالربح الذي يحققونه في بلاد المغرب، ويقيمون في إحدى مدن المغرب الأوسط.

كانّ التّجار المسيحيّون القادمون من أوروبا يتمتعون بالأمن والحماية أثناء إقامتهم في موانئ المغرب الأوسط، أو أثناء رحلاتهم البحرية متّجهين نحو هذه المناطق، وزيادة على ذلك فقد كانوا أحرارًا في بيع سلعهم إمّا نقدا أو مقايضة على أنْ يلتزموا بواجبات مقابل هذه الضمانات، منها الرقابة الدائمة على السلع والبضائع الواردة إلى أسواق المغرب الأوسط،

وعدم الاحتكار التجاري لسلعة معينة، إلى جانب التقيّد ببعض المحظورات المتعلقة بنوع البضائع المتبادلة، ودفعهم للضرائب المفروضة على سلعهم للسلطة الحاكمة في تلمسانّ[٢٧]. وقد حرصت الدول التي ينتمون إليها على عقد معاهدات تجارية مع الدولة الزيانّية لفائدة تُجّارها، تضمنت حرية التجارة والمبادلات التجارية في وهرانّ[٢٨] وبجاية وهنين.

وفي إطار البحث عن الوضعية الاجتماعية لهؤلاء التجار يتبادر تساؤل آخر وهو: أين كانت تسكن هذه الجاليات، وكيف كانّت ظروف إقامتها؟

إذا كانّت المصادر العربية لا تُجيب سوى بإشارات باهتة، فإنّ الوثائق اللاتينية التي نشرها "مسلاتري" تميط اللثام عن الكثير من القضايا التي تتعلق بمقر هؤلاء التجار، وتنظيماتهم في أحيائهم الخاصة. تستعمل المصادر العربية مصطلح "فندق" للتعبير عن مقر إقامة التجار المسيحيين، وهو المصطلح عينه المستعمل في الوثائق اللاتينية[٢٩]، لكن يجب ألاَّ يُفهم من هذا المصطلح أنّه يعني الفندق بمفهومه المتداول اليوم، بل يشير إلى حي كبير أو "مدينة" صغيرة تقع بجوار المدينة بالمغرب الأوسط أي في ربضها، ولا شك أنّ هذه "المدينة" الصغيرة كانت تحتوي على كل المرافق الضرورية التي تخدم حاجيات التجار، فعلاوة على المتاجر الكبرى، وُجدت بعض الدكاكين الصغرى، ومقر سكنى القنصل، كذا الكنيسة، والمقبرة[٣٠].

ومن الجدير بالذكر أنّ كل جالية من الجاليات المسيحية كانّ لها "فندقها" الخاص، فهناك فندق خاص بالتجار القطلانّيين، وآخر لتجار جنوة...[٣١]. والراجح أن مختلف هذه الجاليات المتوسطية كانّت تقيم في مدن الجزائر[٣٢] وتلمسان وهنين ووهران وبون[٣٣]. وكانت "الأحياء المسيحية" تُمثل مُجتمعات صغيرة تعيش فيها الجاليات المسيحية، وتمارس أنشطتها وديانتها بكل حرية، في ظلّ جو من التعايش الديني بين الإسلام والمسيحية، وكأنها في بلدانها الأصلية.

وكانت "المدن التجارية الأوروبية" تعين قنصلاً للإشراف على تجارتها بالمغرب الأوسط في العهد الزياني لمدة سنة أو سنتين وربما ثلاث سنوات في حالة ما إذا زكاه مواطنه التجار، ويقوم بمساعدته موثق للعقود، وترجمان مسلم وعدد من العمال يعرف أحدهم الكتابة، وكان القنصل يقسم بالإنجيل بعدم السماح بإقامة مكان للدعارة في الفندق الذي يشرف عليه، وكذلك عدم بيع الخمر، كانت مهمة القنصل تنحصر في الدفاع عن مصالح الجاليات

المسيحية تجاه السلطات المحلية أو الأجانب، وإدارة الحي أو المدينة الصغيرة، والقضاء بين الرعايا[٣٤].

بقي بعد هذا إثارة نقطة هامة تخص الوضعية الاجتماعية لفئة من الجاليات المسيحية، وهي فئة العبيد الذين اضطرتهم ظروف الأسر إلى العيش في المغرب الأوسط؛ إذْ كانوا يُمثلون يدًا عاملة مهمة في تلمسان خلال العهد الزياني، أصولهم مختلفة من الإسبان والروم والسودان، وظلوا يعيشون في أوساط المجتمع التلمساني، وكانوا يُعامَلون معاملة حسنة حسبما تشير إلى ذلك المصادر التاريخية[٣٥].

٣. خرافة الاضطهاد الزيانيين للمسيحيين:

إذا كانت الصورة المشرقة التي قدمناها عن وضعية الجاليات المسيحية المقيمة بالدولة الزيانيّة تبين إحدى الواجهات الرائعة من صور التعايش السلمي، فهل هذا يعني أنّنا نُعفي الزيانيين من كل زلة أو خطأ في سياستهم تجاه المسيحيين؟

إنّصافاً للحقيقة والتاريخ، نشير بداية إلى إنّ بعض الكتابات الأجنبية استغلت بعضا من هذه "الزلات" لتنفخ فيها وتجعلها معبرا لمقولة الاضطهاد الزيانيي للمسيحيين.

إنّ المتأمل في هذا الحكم، يُلاحظ أنّه مبني على نص خاطئ، ذلك أنّ النصوص تُبين لنا عكس هذه الادعاءات. وقد كفانا فيرلندان (Verlinden) مؤونة الرد على خرافة الاضطهاد الزياني للمسيحيين، فقد بين في جرأة تخالف ما دأب عليه بعض الباحثين، منها أنّ جميع الأسرى المسيحيين الذين كانوا يُقيمون في عاصمة بني زيان يُعدون بالآلاف ويمثلون عناصر مهمة في المجتمع التلمسانّي[٣٦].

وتنهض الرسالة التي بعثها أبو حمو موسى الثاني إلى بطرس الرابع في ٢٣ صفر ٧٦٤هـ/ ١١ ديسمبر ١٣٦٢م قرينة أخرى على سياسة التعايش والتسامح التي نهجها السلاطين الزيانيون، إذْ تقول إحدى فقرات الرسالة: "... وأما قضية النصارى الذين كانوا في الأجفان وخرجوا بمرسانا هنين المحروسة حين وقع بهم الغلب ولجأوا إلينا... اختاروا الإقامة وطلبوا منا الخدمة المستدامة فإنّهم كانوا تحت رعي وكرامة برضا منهم وطيب نفس واختيار من غير ضرر تلحقهم في ذلك..."[٣٧].

وتؤكد شهادة أخرى تُمثل قمة التسامح وسياسة التعايش السلمي التي انتهجها السلاطين الزيانيون منها الرسالة التي وجهها السلطان عبدالرحمن بن موسى بن عثمان بن

يغمراسن إلى جاقمة الثاني ملك أراغونة يعلمه فيها بوصول كتابه مع رسوله ومفوضه قائلا له: "... وقد وصل كتابكم مع إرسالكم ووقفنا على مقاصدكم فيه ومذاهبكم التي تخص الود وتستوفيه... ونحن عاملون على ما ذكرتم من أسباب المواصلة والوداد وتجديد ما كان بين الأسلاف من المودة والاعتقاد... وأسباب الصداقة بين السلاطين معلومة وحدودها مرسومة موسومة..."(٣٨).

ويُمكن فهم بعض أعمال البطش التي قام بها السلطان يغمراسن ضد الفرقة العسكرية المسيحية، انطلاقًا من بواعثها الدفاعية، ذلك أنّ محاولة اغتياله سنة ٦٥٢هـ/ ١٢٥٤م جعلته يتخلص منهم، ويكف عن استخدامهم في جيشه. وإذا كانت هذه الحادثة الاستثنائية تُمثل نقطة سوداء في نسيج التعايش السلمي بين الزيانيين في المغرب الأوسط والجاليات المسيحية ترجع إلى عدم الالتزام بالحكمة والتعقل، فإنها لم تؤثر في صيرورة هذا الاتجاه السلمي الذي تجذّر بفعل سياسة التسامح والتعايش التي نهجها السلاطين الزيانيون، وقد وقف الباحثون الغربيون المنصفون منبهرين أمام هذا الجو من التعايش السلمي بين الجانبين، وينهض دليلًا على ذلك ما كتبه مؤرخ الحياة الدينية في الغرب الإسلامي "الفرد بل" (Alfred bel) حين نوه بروح التسامح والتعايش التي نهجها سكان بلاد المغرب الإسلامي خلال هذه الفترة مع المسيحيين.

ثالثاً: دور الجاليات المسيحية والتأثير بينها وبين مسلمي المغرب الأوسط في العهد الزياني:

لا تفصح النصوص بما فيه الكفاية عن مختلف الأدوار التي لعبها المسيحيون في بلاد المغرب الأوسط، غير أنّ الإشارات الباهتة التي نعثر عليها بصعوبة تكشف طبيعة الأدوار، وأهميتها في تاريخ المغرب الأوسط، ويدل على مساهمتها الفعالة في نسج خيوطه.

لم تترك الجاليات المسيحية بصماتها في التاريخ السياسي للمغرب الأوسط الزيانّي، بينما هو العكس بالنسبة للتجار المسيحيين الذين أثروا في الحركة الاقتصادية، وقد ظلّ تواجد الجاليات المتوسطية -بخبرتها وتقنيتها- يساهم في تطوير مجتمع المغرب الأوسط الزيانّي. فعلى الصعيد السياسي تشير المصادر التاريخية إلى أنّ سلاطين بني زيانّ لم يسمحوا للمسيحيين باعتلاء المناصب السياسية السامية في الدولة أو المشاركة في الحكم، وذلك يعود في نظرنا إلى التزام الدولة الزيانّية بعدم إشراك هؤلاء في العملية السياسية نظرًا للتجارب السابقة للدول الإسلامية التي بينت النتائج الوخيمة على العامة والدولة من جراء استعمال

الذميين في المناصب السيادية. على النقيض من ذلك كانّ للعنصر النسوي المسيحي حضور في مجال الاستخبارات، وتفتيش النساء عند مدخل مدينة تلمسان. وقد وظف السلطان عثمان بن يغمراسن جارية رومية في البلاط المريني أهداها للسلطان يوسف بن يعقوب بعد إنّ دربها أسلوب الكتابة السرية، أو عِلم التعمية، وعلى التجسس والتقاط الأخبار وزودها بالورق الخاص بذلك، فكانت الجارية الرومية تبعث له بالمعلومات الهامة التي تتعلق بالبلاط، وخططه ونواياه واستعداداته العسكرية، وغيرها من المعلومات التي تساعد الخصم[٣٩].

وفي المجال الدبلوماسي قام المسيحيون بدور مهم خاصة اليهود منهم، حيث لجأ سلاطين بني زيانّ لاستعمالهم في سفارتهم إلى البلاد المسيحية والممالك النصرانية نظرًا لإتقانهم لعدة لغات، الشيء الذي ينهض قرينة على استمرار فصل مهم من علاقات التعايش بين الزيانّيين و"ضيوفهم" من الجاليات المسيحية المتوسطية[٤٠].

وعلى الصعيد العسكري، فقد وُظفت الحاميات العسكرية المسيحية لخنق التمردات وقمع الثورات. ويستعرض السلطان الزيانّي أبو حمو موسى الثاني في كتابه "واسطة السلوك في سياسة الملوك" لابنه طبقات الجند قائلا: "وهم أجناد السلطان ويتألفون من الأعلاج والنصارى والأغزاز والوصفان وهؤلاء "احتياطيين" لقمع كل عصيانّ..."[٤١].

ولم يتقاعس السلاطين الزيانّيون بدورهم عن استعمال الكتائب العسكرية المسيحية في المعارك التي خاضوها ضد خصومهم المرينيين، كما حدث ذلك سنة ٦٧٠ه في عهد السلطان يغمراسن بن زيانّ، في معركة واد اسلي بينه وبين السلطان المريني أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق. يتحدث ابن خلدون عن ذلك قائلا: "وهلك عامة عسكر الروم لثباتهم بثبات السلطان يغمراسن فطحنتهم رحى الحرب، وتقبض على قائدهم "بيرتيس" أو "برنيس و"انهزم الباقون"[٤٢].

وفي الميدان الاقتصادي، يظهر دور التجار المسيحيين واضحًا، إذ إنّهم ساهموا في زيادة مداخيل الدولة الزيانّية عن طريق استخلاص هذه الأخيرة للرسوم الجمركية المفروضة على البضائع، كما شكلوا في الوقت نفسه مصدرا لتسويق المنتوجات الزيانّية وخاصة الذهب والعبيد التي كانّت تدر ربحًا هائلًا على الدولة الزيانّية بالمغرب الأوسط[٤٣].

ولا سبيل لإنكار دورهم -على الصعيد الاجتماعي- في نقل الكثير من العادات والتقاليد التي تأثر بها ساكنة المغرب الأوسط الزيانّي، وساهموا أيضا في مجال العمران،

ومعلوم أنّ بعضهم اشتغل بالطبِّ، وقدَّم مساهمات اجتماعية لسكان المغرب الأوسط في عهد بني زيانّ، ولعل من بين أشهر الأطباء الذميين موشى بن صمويل بن يهود الاسرائيلي المعروف بابن الأشقر الذي قال عنه الرحالة المصري عبدالباسط بن خليل: "لم أسمع بذمي ولا رأيت كمثله في مهارته في هذا العلم وعلم الوفق والميقات"(٤٤). والشخصية المذكورة وإن كانت على غير دين النصارى، وبالتالي فهي لا تدخل في صُلب موضوعنا، إلا إنّ الإسقاط التاريخي يدفعنا إلى تصور عام عن مكانة كل الطوائف في ظلِّ الحكم الزيانّي، والأدوار التي أتيح لهم تأديتها ممارسةً وتنظيرًا، والله أعلم بعدد من سكتت المصادر عن ذكرهم، أو فُقدت بين صفحات التاريخ.

أما في ميادين الزراعة والفنون، فإنّه كان للحضور المسيحي فضل على مجتمع المغرب الأوسط الزيانّي، خصوصًا مع الموقع المتميز لتلمسان، وطبيعته الجغرافية، (هذا ما شجع أهل الذمة على التنوع الفلاحي وعدم الاقتصار على منتوج معين) (٤٥).

يبقى علينا في نهاية هذا البحث أن نتساءل -كنتيجة حتمية لتواجد الجاليات المسيحية على أراضي المغرب الأوسط الزيانّي- عن التأثير المتبادل بين الطرفين.

من المؤكد أنّ البعثات التبشيرية لم تستطع أنّ تؤثر في المجتمع الزيانّي بالمغرب الأوسط الذي ظلّ صامدًا أمام "تسرب الإنّجيل" على حد تعبير أحد الباحثين، وفي الوقت ذاته، لم ينجم عن هذا اللقاء بين الإسلام والمسيحية فوق أرض المغرب الأوسط نهاية حتمية للمسيحية، فقد حافظ كل شعب على حرية المعتقد الذي يؤمن به.

وإذا كانت الواجهة الدينية شكلت أهم باب موصد في وجه التأثير المتبادل، فعلى العكس من ذلك حدث امتزاج اجتماعي لا ندرك أهميته إلا بالوقوف على النصوص التاريخية التي قد تشير إلى ذلك، ومن مظاهر هذا الامتزاج الجديرة بالبحث مسألة زواج الزيانّيين بالمسيحيات.

ومن مظاهر انصهار الزيانّيين والجاليات المسيحية، إقدام هذه الأخيرة على تعلم اللغة العربية، فتجار جنوة فهموا ضرورة تعلم اللغة العربية منذ البدايات الأولى لنهضتهم التجارية، وثمة ظاهرة أخرى نتجت عن اتصال الزيانّيين بالجاليات المسيحية ألا وهي كثرة أسواق الرقيق في كبريات المدن وانتشار التسري بالجواري المسيحيات.

وصفوة القول أنّ المغرب الأوسط في العهد الزيانّي شكل أرض لقاء مع مختلف الشعوب

المسيحية، ووفر لها كل الظروف الناجحة للممارسة أنشطتها المتنوعة. ولذلك تميزت بوضعية تضاهي وضعيتها نظرائها في المشرق الإسلامي، وإذا كانت الوثائق والنصوص تؤكد على مصداقية طابع التعايش السلمي، والتسامح الذي ساد بين ساكني المغرب الأوسط الزيانّي والشعوب المسيحية؛ فلا شك في أنّ ما يمكن أنْ تكشف عنه أبحاث علم الآثار قد تزيح الستار عن جوانب أخرى وتجيب عن أكثر من لغز غامض، وذلك موضوع جدير بالبحث والدراسة.

حواشي البحث

- أستاذ التعليم العالي كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، قسم العلوم الإنسانية، شعبة التاريخ.

(١) زايد عبدالمرضي محمد عطورة، دولة بني زيانّ في المغرب، رسالة ماجستير كلية الآداب (مرقونة) جامعة القاهرة، ١٩٨١-١٩٨٢م، ص٣٦٥.

(٢) عمر سعيدانّ، علاقات إسبانيا القطلانّية بتلمسانّ دراسة ووثائق (رسائل ومعاهدات) وتعاليق وتحاليل، منشورات سعيدانّ - سوسة، تونس ٢٠٠٢م، ص٢٣.

(٣) ينظر كتابه: *Traites de paix et de commerce et documents divers concernant les relations des chrétiens avec les arabes de l'Afrique septentrionale au moyen âge*, paris, 1866-1875.

(٤) غرايب الحسن، مسيحيو المغرب الأقصى في العصر الوسيط، منشورات مطابع الرباط نت، المغرب، ٢٠١٥م.

(٥) عطا علي محمد شحاتة ربه، اليهود في المغرب الأقصى، دار الكلمة للنشر والتوزيع، دمشق، الطبعة الأولى، ١٩٩٩م.

(٦) هذا ما نلاحظه مثلا عند أبي زكرياء يحي بن خلدون الذي عاصر الدولة الزيانّية، أو ابن مرزوق في كتابه المسند عند حديثه عن رواتب الجند المسيحيين الملازمين لخدمة الدولة الزيانّية.

(٧) أراغون لتسليط الضوء على طبيعة العلاقات الزيانية الأراغونية يُراجع: لطيفة بشاري، "العلاقة التجارية بين إمارة بني عبدالواد ومملكة أراغونة"، مجلة الاتحاد العام للآثاريين العرب، ع١٢، ص ٩٥ وما بعدها.

(٨) عمر سعيدانّ، المرجع السابق، ص٢٤.

(٩) (مدينة بالمغرب الأوسط -الجزائر حاليًّا- جليلة على البحر، وشمالها تلمسان، وهي بقرب ندرومة). أبوعبدالله محمد بن عبدالمنعم الحميري (ت ٩٠٠هـ/ ١٤٩٥م): الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، مكتبة لبنان، ط٢، ١٩٨٤م، ص٥٩٧.

(١٠) (مدينة بالقرب من مليانة بينها وبين البحر ميلان، وهي مسورة حصينة). المصدر السابق، ص١٣٨.

(١١) عبدالعزيز فيلالي، تلمسانّ في العهد الزيانّي، ج١، دار موفم للنشر والتوزيع، الجزائر ٢٠٠٢م، ص١٩٠.

(١٢) مجهول، الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية، اعتنى بنشره محمد بن أبي شنب، الجزائر ١٩٢٠م، ص١٤٩.

(١٣) Dufourcq , *l'Espagne catalane au VI I I et XIV siècle de la bataille de los navas de tolosa 1212 al événement du sultan mérinide Abou-L-Hassan1331* éd. puf, France, Paris, 1966, p.314.

(١٤) يحيى بن خلدون، بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبدالواد، تقديم وتحقيق عبدالحميد حاجيات المكتبة الوطنية الجزائر ١٩٨٠م، ص١٤٢.

(١٥) عبدالصمد حمزة، أهل الذمة في الدولة الزيانّية أطروحة دكتوراه (مرقونة)، قسم الحضارة الإسلامية،

كلية العلوم الإنسانّية والعلوم الإسلامية، جامعة وهرانّ، ٢٠١٦-٢٠١٧م، ص٣٣.

(١٦) يُراجع عن جهود القائد العثماني: محمد بوشنافي، مساهمة عروج بن يعقوب في مواجهة الخطر الإسباني على المغرب الأوسط، ١٥١٢- ١٥١٨م، مجلة عصور، ع ٥/٤، ديسمبر ٢٠٠٣- جوان ٢٠٠٤م/ ١٤٢٤-١٤٢٥هـ، ص ص٢٥٣ – ٢٦٠.

(١٧) بلعربي خالد، "الوضع السياسي في الجزائر أواخر حكم الدولة الزيانّية"، مقال ضمن كتاب الجزائر وتوازنات القوى البحرية غرب المتوسط خلال القرن السادس عشر الميلادي -دراسة تاريخية-، دار النشر الجامعي الجديد، تلمسانّ الجزائر ٢٠١٨م، ص١٤.

(١٨) هذا الملك تمكن من فرض سيطرته على الحفصيين عندما أفل نجمهم، يُنظر: الشافعي درويش، "الحملة الإسبانية على تونس في سنة ١٥٣٥م، La Campagne d'Espagne à Tunis en 1535"، مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية، ع ٣٠، سبتمبر ٢٠١٧، ص ص٢ – ١٠.

(١٩) عبدالعزيز فيلالي، المرجع السابق، ج١، ص٧٧.

(٢٠) الغبريني أبو العباس أحمد بن أحمد، عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، تحقيق رابح بونار، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر١٩٨١، ص٦٥. وبجاية هي "قاعدة المغرب الأوسط، مدينة عظيمة على ضفة البحر يضرب سورها، وهي على جرف حجر ولها من جهة الشمال جبل يسمى أمسيون...". الحميري، مصدر سابق، ص٧٩ وما بعدها.

(٢١) عمر سعيدان، المرجع السابق، ص ص٩٠، ٩١.

(٢٢) "قاعدة المغرب الأوسط –الجزائر حاليًّا– مدينة عظيمة شهيرة تداول عليها الملك واتخذها بنو زيان عاصمة. ولم تزل دارا للعلماء والمحدثين وأهل الرأي على مذهب مالك". الحميري، مصدر سابق، ص ص١٣٥ – ١٣٦.

(٢٣) شريف عبدالقادر، "مسألة الأسرى والجنود المسيحيين في الدولة الزيانّية (٦٣٣-٩٦٢هـ/ ١٢٣٥-١٥٥٤م)"، مجلة الدراسات التاريخية، المجلد ١٤، العدد ٢١، ص١٣٩.

(٢٤) الونشريسي أبو العباس أحمد بن يحي، المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوي علماء إفريقيا والأندلس والمغرب، ج٢، تحقيق محمد حجي وآخرين، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية للمملكة المغربية ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م، ص١٧٢.

(٢٥) عمر سعيدانّ، المرجع السابق، ص٩٠.

(٢٦) عبدالصمد حمزة، المرجع السابق، ص٩٨.

(٢٧) عبدالعزيز فيلالي، المرجع السابق،ج١، ص١٨٨.

(٢٨) نفسه، ج١، ص١٩٩.

(٢٩) "من مدن المغرب الأوسط على ساحل البحر، قيل إنها أسست في سنة تسعين ومائتين، وبناها جماعة من الأْندلسيين البحريين". الحميري، مصدر سابق، ص٦١٢.

(٣٠) MASLATRIE, op.cit. , p.89.

(٣١) عبدالعزيز فيلالي، المرجع السابق،ج١ ، ص١٩٢.

(٣٢) عمر سعيدانّ، المرجع السابق، ص٨٩.

(٣٣) "أو الجزائر وهي مدينة جليلة قديمة البناء فيها آثار للأول، على البحر المتوسط". الحميري، مصدر سابق، ص١٦٣.

(٣٤) بونة وهي مدينة عنابة في الشرق الجزائري حالياً. عبدالرحمن ابن خلدون، رحلة ابن خلدون، مراجعة، محمد بن تاويت الطنجي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، ٢٠٠٤م/ ١٤٢٥هـ، ص ص٩٤ – ٩٦.

(٣٥) شريف عبدالقادر، المقال السابق، ص١٤٢.

(٣٦) يُنظر تفصيل ذلك عند: نميش سميرة، دور أهل الذمة بالمغرب الأوسط خلال العهد الزياني من القرنين (٧ - ١٠هـ/ ١٣- ١٦م)، رسالة ماجستير (مرقونة)، كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية، قسم التاريخ وعلم الآثار، جامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان، الجزائر، ١٤٣٤هـ- ١٤٣٥هـ/ ٢٠١٣م- ٢٠١٤م، ص١٩ وما بعدها.

(٣٧) Verlinden, "l'Espagne dans le monde ibérique medieval", in : *anurio histoire derecho Espagnol*, XI, 1934, p.34.

(٣٨) عمر سعيدانّ، المرجع السابق، ص١٣٨.

(٣٩) نفسه، ص٨٩.

(٤٠) عبدالعزيز فيلالي، المرجع السابق، ج١، ص٢٥. ينظر كذلك عبدالصمد حمزة، المرجع السابق، ص٥٩.

(٤١) زايد عبدالمرضي محمد عطورة، المرجع السابق، ص٣٢.

(٤٢) أبو حمو موسى بن يوسف الزيانّي، واسطة السلوك في سياسة الملوك، مطبعة الدولة التونسية، تونس، ١٩٦٢م، ص١٦١.

(٤٣) ابن خلدون عبدالرحمن، ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأنّ الأكبر، وضع حواشيه وفهارسه خليل شحادة، ج٧، دار الفكر، بيروت، ٢٠٠٠م، ص٢٤٤.

(٤٤) عبدالباسط بن خليل، الروض الباسم في حوادث العمر والتراجم، تحقيق عبدالسلام تدمري، صيدا، لبنان (د. ت)، ص٤٤.

(٤٥) سميرة نميش، مرجع سابق، ص ٥٦.